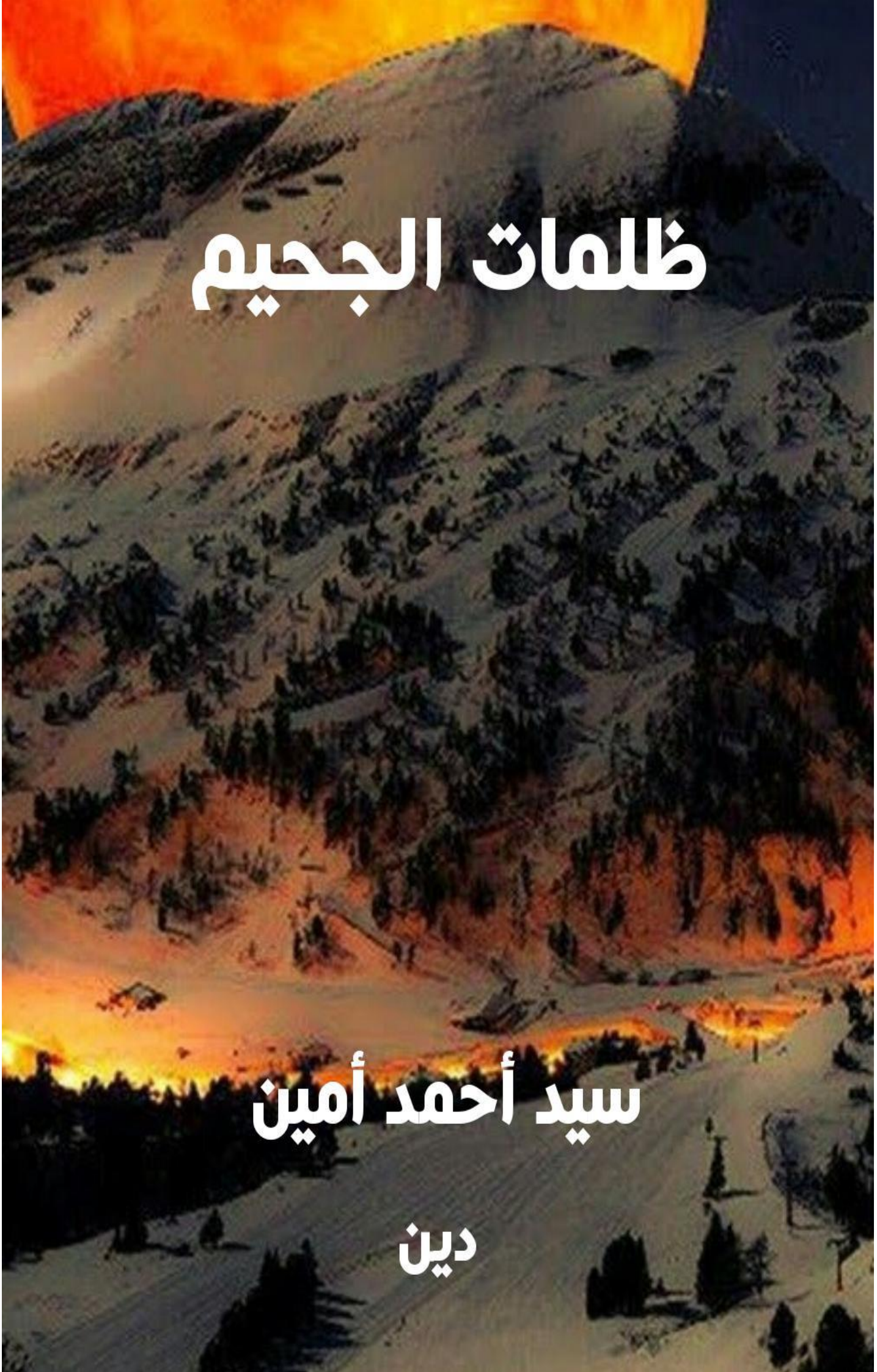
ظلمات الجحيم
سيد أحمد أمين
دين

{ظلمات الجحيم}

إهداء

(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيد الخلق وإمام العالمين سيدنا محمد بن عبد الله سيد الثقلين ،فاللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آلة وصحبه وسلم تسليماً كثيراً ثم أما بعد:

ما يزال المرء يهلك نفسه ويلقي نفسه في الجحيم دون أن يشعر فتجده يتسابق في الهلاك ويلقي نفسه في النيران كأنه لا يري ولا يسمع ولا يبصر فما يفعل ذلك إلا لغياب عين اليقين عنه فهو لم يؤمن بما جاء من نصوص قرآنية فهو ممكن أن يعرف النصوص ولكنه لا يوقن بها فالمعرفة لوحدها لا تكفي، إذ لابد من الثقة في كلام الله ورسوله وتخيل الغيب بل العيش في الغيب كأنه سيقع لا محال ومرئي ومسموع وملموس، حينها تتبدد الظلمات إلى النور وتري الجنة والنار والجن والملائكة وكل الغيب رأي العين.

[الفصل الاول]

أثر المعاصي على الفرد ومن يعول

حينما ترتكب المعاصي وتترك جنب ربك وقتها تغرق وتهوى في الجحيم جحيم الدنيا والآخرة دون شعور منك، وربما عاينت ما في الدنيا من أرقٍ وحزن وتشرد وكآبة وهم ومرض وتقلبات وأزمات، فلا تشعر بسعادة أبداً رغم ما في الدنيا حتى ولو كنت تمتلك المال الكثير أو العقارات والسيارات ومتع الحياة لأن السعادة الحقيقية في رضا الله و المثول بين يديه والسجود له والبكاء من خشيته والذل والخضوع له والخوف منه والتلذذ بكلماته وذكره وحبه إذ أن العيش في جنب الله لهو الجنة والبعد عنه لهو الجحيم، فمن أراد السعادة في الدارين الأولي والآخرة فليلزم طاعة ربه وترك معصيته ،فمن انشغل بعظيم وكريم وملك وكبير تكون منزلته على قدر من تكون معه، وكان في أعين الناس قامة وقيمة، وصارت أخلاقه كمن جواره واتبعه وسار خلفه وتحت ظله وحمايته ، فمن أحب أحد اقتدى به وقلده وسار على دربه وتشبه بصفاته وتسمى بأسمائه وتحلى بصفاته.

عقوبة المعاصي

يا أيها الغافل ؛ الغارق في المعاصي ؛ هل علمت أن للمعاصي عقوبات تحل بأهلها في الدنيا والآخرة؟

إن نيران المعاصي إذا اشتعلت أحرقت كل شيء ؛ ونيران المعاصي لا تطفئها إلا التوبة النصوح؛ التي يخلص العبد فيها الرجوع إلى الله تعالى فيا من أوبقتك المعاصي هيا انجو بنفسك من عقوباتها قبل أن تنزل بك عقوبات الله، فقد قال الله تعالى :

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُون) [الروم: 41] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع لا يغيرون إلا عمهم الله بعقاب» (رواه ابن ماجه صحيح ابن ماجة) ،وقال صلى الله عليه وسلم : «إن الله عز وجل يملي للظالم، فإذا أخذه لم يُفلته» ثم قرأ "وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ " (رواه البخاري ومسلم) .قال الإمام ابن القيم : «وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنه شديد العقاب، وأنه لا يُرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند»، فعلى العاقل أن يحذر من عقوبة المعاصي؛ ولا يغتر بالتأخير؛ فإن الله تعالى لا تضره معصية العاصي، كما أنه تعالى لا يفوته العاصي؛ لذلك فإنه تعالى يؤخر العقوبة، ولكن متى نزلت فلا نجاة للعاصي، كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى بعضهم :«أما بعد:

فلا تغتر يا عبد الحميد بتأخير عقوبة الله تعالى عنك، وإنما يعجل من يخاف الفوت، والسلام» ،فإن الغافل حقًا هو الذي يغفل عن عقوبات المعاصي وجزائها النازل، وكم من عاص لا يهمه عاقبة الذنب ،وكم من عاص نسي عواقب الذنوب الوخيمة ،قال ابن عباس رضي الله عنهما : «يا صاحب الذنب لا تأمن سوء عاقبته، ولما يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته، فقلة حيائك ممن على اليمين وعلى الشمال وأنت على الذنب أعظم من الذنب » وضحكك وأنت لا تدري ما الله صانع بك أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب إذا ظفرت به أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب إذا فاتك أعظم من الذنب، وخوفك من الريح إذا حركت ستر بابك، وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله عليك أعظم من الذنب، فيا من أسرفت في المعاصي لا تظنن أن الله غافل عنك، ويا من أسرفت في المعاصي تذكر غضب الله وسخطه)

-عقوبات المعاصي متعددة الأنواع؛ فالضنك والضيق بأنواعه، قد يكون من عقوبات المعاصي، بل إن المعصية بعد المعصية من عقوبات المعاصي، وتسويف التوبة من عقوبات المعاصي، قال بعض الحكماء:

(المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة) ،قال الإمام ابن الجوزي:

«وربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله، فظن أن لا عقوبة وغفلته عما عوقب به عقوبة، وربما كان العقاب العاجل معنويًا كما قال بعض أحبار بني إسرائيل: (يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني، فقيل له: كم أعاقبك وأنت لا تدري، أليس قد حرمت حلاوة مناجاتي؟»،

- لقد كان الصالحون من هذه الأمة يحاسبون أنفسهم حساب المؤمنين الصادقين، ولا يدعون حدث يمر عليهم دون أن يفكروا في أسبابه، فإذا نزل بأحدهم شيء

ينكره رجع إلى نفسه فحاسبها، وهم الصالحون حقًا، والعاملون بطاعة الله تعالى في ليلهم ونهارهم، قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

«إني لأعصي الله عز وجل فأعرف ذلك في خُلُق دابتي وجاريتي»، وجاء عن أبي عثمان النيسابوري رحمه الله: أنه انقطع شسع نعله في مضيه إلى الجمعة، فتعوق لإصلاحه ساعة، ثم قال: «ما انقطع إلا لأني ما اغتسلت غسل الجمعة»، يقول الإمام ابن الجوزي: «من تأمل عواقب المعاصي، رآها قبيحة، ولقد تفكرت في أقوام أعرفهم، يقرون بالزنا وغيره، فأرى تعثرهم في الدنيا مع جلادتهم ما لا يقف عند حد، وكأنهم ألبسوا ظلمة؛ فالقلوب تنفر عنهم؛ فإن اتسع لهم شيء؛ فأكثره من مال الغير، وإن ضاق بهم أمر؛ أخذوا يتسخطون على القدر هذا وقد شغلوا بهذه الأوساخ عن ذكر الآخرة، ثم عكست فتفكرت في أقوام صابروا الهوى، وتركوا ما لا يحل، فمنهم من قد أينعت له ثمرات الدنيا، من قوت مستلذ ومهاد مستطاب وعيش لذيذ وجاه عريض؛ فإن ضاق بهم أمر وسعه الصبر، وطيبه الرضى ففهمت بالحال معنى قوله تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) إن للذنوب عقوبة معجلة في الدنيا غير المؤجلة في الآخرة وقد عدد الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله أكثر من أربعين عقوبة للمعصية حين يقع فيها الانسان فأردت أن أذكرها لك على بيِّنة حين تسول لك نفسك الأمارة بالسوء ويدعوكم داعي الهوى فقال رحمه الله (ومن عقوبات المعاصي

1-حرمان العلم

فإن العلم نور يقذفه الله في القلب والمعصية تطفئ ذلك النور، وقد قال مالك للشافعي :(إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية.

2- حرمان الرزق:

وفي المسند من حديث ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)

3- وحشة يجدها العاصي في قلبه:

وحشة بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذه ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تفِ بتلك الوحشة.

4-ووحشة تحصل بينه وبين الناس:

ولا سيما أهل الخير منهم ،وكلما قويت تلك الوحشة بعد عنهم وعن مجالستهم.

5- تعسير أموره عليه:

فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه متعسراً عليه.

6- ظلمة يجدها في قلبه حقيقية:

فيحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهم، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ، ثم تقوى حتى تعلو الوجه، وتصير سواداً فيه يراه كل أحد.

7-المعاصي توهن القلب والبدن:

أما وهنها للقلب فأمر ظاهر وأما وهنها للبدن ،فالفاجر وإن كان قوي البدن فهو أضعف ما يكون عند الحاجة.

8-حرمان الطاعة:

فينقطع عنه بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها.

9-المعاصي تقصر العمر وتمحق بركته.

10-المعاصي تزرع أمثالها: ويولد بعضها بعضاً كما قال بعض السلف: (إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها، وإن من ثواب الحسنة ؛الحسنة بعدها.

11- المعصية تضعف إرادة الخير:

فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة.

11- إلف المعصية:

حتى ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم له.

12 -المعصية سبب لهوان العبد على ربه قال تعالى:

(ومن يهن الله فما له من مكرم. 14- شؤم المعصية:

يعود عليه شؤم ذنوبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم.

15- المعصية تورث الذل:

فإن العز كل العز في طاعة الله. 16- المعاصي تفسد العقل:

فإن للعقل نوراً والمعصية تطفئ نور العقل ولابد وإذا طفئ نوره ضعف ونقص.

17-الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها:

فكان من الغافلين ،قال تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون).

18- الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

19- الذنوب سبب في حرمان دعوة الرسول ودعوة الملائكة: فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات.

20- الذنوب والمعاصي تحدث في الأرض أنواعاً من الفساد: في المياه والهواء والزروع والثمار والمساكن.

21-الذنوب تطفئ من القلب نار الغيرة:

التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لجميع البدن.

22-المعاصي تذهب الحياء: الذي هو مادة حياة القلب وهو أصل كل خير وذهابه ذهاب الخير أجمعه.

23-الذنوب تضعف في القلب تعظيم الرب جل جلاله:

وتضعف وقاره في قلب العبد ولابد شاء أم أبى، ومن بعض العقوبة هذا أن الله يرفع مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به كما هان عليه امره واستخف به.

24- المعصية تستدعي نسيان الله لعبده:

وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه وهناك الهلاك الذي لا يرجى معه نجاة.

25-المعاصي تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة.

26-الذنوب تزيل النعم وتحل النقم:

فمن عقوبتها أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة ،فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب.

27-من عقوبة المعصية ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً، فإن الطاعة حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين من عقوبة الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب.

28-المعاصي تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه:

فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ولا دواء لها إلا تركها.

29-المعاصي تعمي بصيرة القلب:

وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب موارد الهداية.

30-المعاصي تصغر النفس وتقمعها:

وتحقرها حتى تصير أصغر شيء وأحقره كما أن الطاعة تنميها وتزكيها قال تعالى(قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها).

31-المعاصي تسقط الجاه والمنزلة والكرامة:

عند الله وعند خلقه فإن أكرم الخلق عند الله أتقاهم وأقربهم منه منزلة أطوعهم له.

32-المعاصي توجب القطيعة بين العبد وربه تبارك وتعالى: وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر.

33-المعاصي تسلب صاحبها اسماء الشرف والمدح: وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن والبر والمحسن والمتقي وتكسوه اسم الفاجر والعاصي والخبيث والزاني واللوطي والسارق ونحوها.

34-المعاصي تمحق البركة: فهي تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة وبالجملة تمحق بركة الدين والدنيا.

35-المعصية تجعل صاحبها من السفلة:

بعد أن كان متهيئا ليكون من العلية.

36-المعصية تجريء على العبد من لم يكن يتجرأ عليه من أصناف المخلوقات:

فتجريء عليه الشياطين بالأذى والوسوسة والإغواء والتخويف والتحزين والمس وتجترئ عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من أذاه في غيبته وحضوره ويجترئ عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم.

37-المعاصي تجعل العبد أحوج ما يكون لنفسه:

في تحصيل العلم وايثار الحظ الأشرف العالي على الحظ الخسيس المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع في الدارين.

38- المعصية تنسي العبد نفسه:

وإذا نسي الانسان نفسه أهلكها وأهملها وأفسدها قال تعالى(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون).

39-المعصية تباعد عن العبد وليه وأنفع الخلق له وأنصحهم له ومن سعادته في قربه منه وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه وأغشى الخلق له وأعظمهم ضرراً له وهو الشيطان.

40-ومن عقوبات المعصية المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة:

قال تعالى(ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً... الآية).

فهذه هي عقوبات المعاصي والذنوب، وإن العاقل ليستشعر أن واحده منها لكافية في أوبته وعقده على التوبة النصوح والرجوع إلى الله عز وجل فحري بكَ أن تبادر بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله، قال تعالى (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)، ويقول صلى الله عليه وسلم: (إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل)، وإياك وتوبة الكذابين التي تكون باللسان والقلب منعقد على المعصية عازم على موقعتها متى أمكنه ذلك، وتذكر رحمك الله أن المعصية تنادي أختي أختي كما أن الحسنة تنادي أخواتها ولا تزال المعصية تنادي على أخواتها حتى تجتمع على العبد فتهلكه، فنسأل الله العفو والعافية هذه

قصص في عقوبات المعاصي منها عقوبات دنيوية و أخرى برزخية ،فالعقوبات الحسية و المعنوية قال ابن الجوزي في صيد الخاطر :

(ربما رأى العاصي سلامة بدنه وماله، فظن أن لا عقوبة، و غفلته عما عوقب به عقوبة)، وقد قال الحكماء:(المعصية بعد المعصية عقاب المعصية، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة وربما كان العقاب العاجل معنويًا، فمن تأمَّل هذا الجنس من المعاقبة، وجده بالمرصاد، حتى قال وهيب بن الورد، وقد سئل: أيجد لذة الطاعة من يعصي؟

فقال: ولا من هم، فرب شخص أطلق بصره، فحرم اعتبار بصيرته، أو لسانه، فحرم صفاء قلبه، أو آثر شبهة في مطعمه، فأظلم سره، وحرم قيام الليل، وحلاوة المناجاة، إلى غير ذلك، وهذا أمر يعرفه أهل محاسبة النفوس، فالذنب لا ينسى، قال ابن القيم في الداء و الدواء: (هاهنا نكتة دقيقة يغلط فيها الناس في أمر الذنب وهي أنهم لا يرون تأثيره في الحال وقد يتأخر تأثيره فينسي ويظن العبد أنه لا يُغبر بعد ذلك وإن الامر كما قال القائل اذا لم يغبر حائط في وقوعه ، فليس له بعد الوقوع غبار وسبحان الله ماذا أهلكت هذه النكتة من الخلق وكم أزالت من نعمة وكم جلبت من نقمة وما أكثر المغترين بها من العلماء والفضلاء فضلاً عن الجهال، ولم يعلم المغتر أن الذنب ينقض ولو بعد حين كما ينقض السهم، وكما ينقض الجرح المُندملُّ على الغش والدغل وقد ذكر الإمام أحمد عن أبي الدرداء:

(أعبدوا الله كأنكم ترونه وعدوا أنفسكم في الموتى واعلموا أن قليلا يكفيكم خير من كثير يلهيكم واعلموا أن البر لا يبلى وأن الاثم لا ينسى، ونظر بعض العبُّاد الى صبي فتأمل محاسنه فأتى في منامه وقيل له لتجدن غبها بعد أربعين سنة، هذا مع أن للذنب نقداً معجلاً لا يتأخر عنه، قال سليمان التميمي إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مزلته وقال يحيي بن معاذ الرازي (عجبت من ذي عقل

يقول في دعائه اللهم لا تشمت بي الاعداء، ثم هو يشمت بنفسه كل عدو له قيل وكيف ذلك؟

قال يعصي الله فيشمت به في القيامة كل عدو قال ذي النون من خان الله في السر هتك ستره في العلانية قال ابن الجوزي في صيد الخاطر ومما ينبغي للعاقل أن يترصده وقوع الجزاء، فإن ابن سيرين قال: (عيرت رجلًا فقلت: يا مفلس، فأفلست بعد أربعين سنة وقال ابن الجلاء: رآني شيخ لي وأنا أنظر إلى أمرد، فقال: ما هذا؟

لتجدن غبها فنسيت القرآن بعد أربعين سنة، فأعظم عقوبة قال ابن القيم في الفوائد (ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله قال ابن القيم في مدارج السالكين (الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها والجهل بقدر من عصاه و الجهل بسوء عاقبتها ،عظم خطرها ففرحه بها غطى عليه ذلك كله وفرحه بها أشد ضرراً عليه من موقعتها والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبداً، ولا يكمل بها فرحه بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه، ولكن سكر الشهوة يحجبه عن الشعور بها خلي قلبه من هذا الحزن واشتدت غبطته وسروره فاليتّهم إيمانه وليبكِ على موت قلبه ،فإنه لو كان حيا لأحزنه ارتكابه للذنب وغاظه وصعب عليه ،ولا يحس القلب بذلك، فحيث لم يحس به، فما لجرح بميت إيلام، وهذه النكتة في الذنب قلَّ من يهتدي إليها أو ينتبه لها وهي موضع مخوف جداً مترام إلى هلاك إن لم يتدارك بثلاثة أشياء:(خوف من الموافاة عليه قبل التوبة ،وندم على ما فاته من الله بمخالفة أمره وتشمير للجد في استدراكه عقوبات لا نحس بها كفساد الرأي وخفاء الحق وفساد القلب وخمول الذكر واضاعة الوقت ونفرة الخلق والوحشة بين العبد وبين ربه ومنع اجابة الدعاء وقسوة القلب ومحق البركة في الرزق والعمر وحرمان العلم ولباس الذل واهانة العدو وضيق الصدر والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت وطول الهم والغم وضنك المعيشة

وكسف البال، فقصة المستهزئ بالسواك قال ابن خلكان: بلغنا من جماعة يوثق بهم وصلوا إلى دمشق من أهل بصرى أن عندهم قرية يقال لها دير أبي سلامة كان بها رجل من العربان فيه استهتار زائد وجهل فجرى يوماً ذكر السواك وما فيه من الفضيلة، فقال والله ما أستاك إلا من المخرج فأخذ سواكاً وتركه في دبره فآلمه تلك الليلة ثم مضى عليه تسعة أشهر وهو يشكو من ألم البطن والمخرج ثم أصابه مثل طلق الحامل ووضع حيواناً على هيئة الجرذون ورأسه مثل رأس السمكة وله أربع أنياب بارزة وذنب طويل مثل شبر وأربع أصابع وله دبر مثل دبر الأرنب ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات فقامت ابنة ذلك الرجل فشجت رأسه فمات وعاش ذلك الرجل بعده يومين ومات وهو يقول هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي، وشاهد ذلك الحيوان جماعة من تلك الناحية وخطيب المكان ، (شذرات الذهب في أخبار من ذهب)، وعبد الحي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي القصة، وذكر ابن القيم في مفتاح دار السعادة: قال بن مروان المالكي في كتاب المجالسة له: حدثنا زكريا بن عبد الرحمان قال سمعت أحمد بن شعيب يقول كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث قال فيه: (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم.....الحديث) ، وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة، فجعل يستهزأ بالحديث، فقال: والله لأطرقن غداً نعلي بمسامير، فأطأ بها أجنحة الملائكة، ففعل ومشى في النعلين، فجفت رجلاه جميعاً ووقعت في رجليه الأكلة. القصة الذهبي (العلو للعلي الغفار) ، قال الحافظ عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في كتاب الرد على الجهمية حدثنا أبي وأبو زرعة قال: كان يحكى لنا أن هنا رجلاً من قصة هذا فحدثني أبو زرعة قال كان بالبصرة رجل و أنا مقيم في سنة ثلاثين و مائتين فحدثني عثمان بن عمرو بن الضحاك عنه أنه قال إن لم يكن القرآن مخلوق فمحا الله ما في صدري من القرآن، وكان من قراء القرآن فنسي حتى كان يقال له قل بسم الله الرحمن الرحيم فيقول معروف ؛ معروف، و لا يتكلم به قال أبو زرعة فجهدوا بي أن أراه فلم أره ، فقال محمد بن بشار سمعت جاراً كان لي وكان يقرأ القرآن و

يقول هو مخلوق فقال له رجل إن لم يكن القرآن مخلوقاً فمحا الله كل آية في صدرك قال نعم، فأصبح و هو يقول الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك ،فإذا أراد أن يقول نعبد لم يجر لسانه. /صيد الخاطر /ابن الجوزي، يقال أن عبد المجيد بن عبد العزيز كان عندنا بخراسان رجل كتب مصحفًا في ثلاثة أيام، فلقيه رجل، فقال: في كم كتب هذا؟ فأومأ بالسبابة والوسطى والإبهام، وقال: في ثلاث، {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}، فجفت أصابعه الثلاث، فلم ينتفع بها فيما بعد. /النظرة سهم إبليس، ويروى أن أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْحُسَيْنِ بْنَ أَبِي الْقَاسِمِ الْمُذَكِّرَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيٍّ الْجَوْهَرِيَّ، يَقُولُ: أَخْبَرَنِي أَبِي أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ علي الْجَوْهَرِيِّ، قَالَ: قَالَ عَبْدَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ: خَرَجْنَا فِي سَرِيَّةٍ إِلَى أَرْضِ الرُّومِ، فَصَحِبَنَا شَابٌّ لَمْ يَكُنْ فِينَا أَقْرَأُ لِلْقُرْآنِ مِنْهُ، وَلَا أَفْقَهُ مِنْهُ، وَلَا أَفْرَضُ منه، صَائِمٌ النَّهَارَ، قَائِمٌ اللَّيْلَ، فَمَرَرْنَا بِحِصْنٍ لَمْ نُؤْمَرْ أَنْ نَقِفَ عَلَى ذَلِكَ الْحِصْنِ، فَمَالَ الرَّجُلُ مِنَّا عَنِ الْعَسْكَرِ، وَنَزَلَ بِقُرْبِ الْحِصْنِ فَظَنَنَّا أَنَّهُ يَبُولُ، فَنَظَرَ د حد إِلَى امْرَأَةٍ مِنَ النَّصَارَى تَنْظُرُ مِنْ وَرَاءِ الْحِصْنِ، فَعَشِقَهَا، فَقَالَ لَهَا بِالرُّومِيَّةِ: كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَيْكِ ؟قَالَتْ: حِينَ تَتَنَصَّرُ، وَنَفْتَحُ لَكَ الْبَابَ: فَفَعَلَ، فَأُدْخِلَ الحصن قال: فَقَضَيْنَا غَزَاتَنَا فِي أَشَدِّ مَا يَكُونُ مِنَ الْغَمِّ . كَانَ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا يَرَى ذَلِكَ بِوَلَدِهِ مِنْ صُلْبِهِ، ثُمَّ عُدْنَا فِي سَرِيَّةٍ أُخْرَى فَمَرَرْنَا بِهِ يَنْظُرُ مِنْ فَوْقِ الْحِصْنِ مَعَ النَّصَارَى، فَقُلْنَا: يَا فُلَانُ مَا فَعَلَ قُرْآنُكَ؟، مَا فَعَلَ عِلْمُكَ؟، مَا فَعَلَ صَلَاتُكَ وَصِيَامُكَ؟، قَالَ: اعْلَمُوا أَنِّي نَسِيتُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ، مَا أَذْكُرُ مِنْهُ إِلَّا هَذِهِ الْآيَةَ :{ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ } [الحجر: 3] " .قَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ: " هَكَذَا يَكُونُ حَالُ مَنْ تُدْرِكُهُ الشَّقَاوَةُ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ . فَكَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ يَكُونُ حَالُ مَنْ تُدْرِكُهُ السَّعَادَةُ "شعب الإيمان / البيهقي ، فيجب على كل مسلم الخوف من سوء الخاتمة و لا يغتر بكثرة العمل فالعبرة في الاعمال بخواتمها، و لا يحتقر المبتلين فالسوط الذي ضربوا به بيد مقلب القلوب.

[الفصل الثاني]

أثر المعاصي علي العباد والبلاد

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ خصالٍ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ " / الاحاديث الصحيحة الألباني قال ابن كثير / البداية و النهاية(ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جدا، فهلك خلق كثير جداً من الفقراء والاغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم، حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل: أن العادل كَفَّنَ من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف وعشرين ألف ميت وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر، وأكل من الصغار و الاطفال خلق كثير، يشوي الصغير والداه ويأكلانه وكثر هذا في الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم فلما فرغت الاطفال والميتات غلب القوي الضعيف فذبحه وأكله، وكان الرجل يحتال على الفقير فيأتي به ليطعمه أو ليعطيه شيئا، ثم يذبحه ويأكله، وكان أحدهم يذبح امرأته ويأكلها و

شاع هذا بينهم بلا إنكار و لا شكوى، بل يعذر بعضهم بعضاً، ووجد عند بعضهم أربعمائة رأس وهلك كثير من الاطباء الذين يستدعون إلى المرضى، فكانوا يذبحون ويؤكلون، وكان الرجل يستدعي الطبيب ثم يذبحه ويأكله، وقد استدعى رجل طبيباً حاذقاً، وكان الرجل موسراً من أهل المال، فذهب الطبيب معه على وجل وخوف، فجعل الرجل يتصدق على من لقيه في الطريق ويذكر الله ويسبحه، ويكثر من ذلك، فارتاب به الطبيب وتخيل منه، و مع هذا حمله الطمع على الاستمرار معه حتى دخل داره، فإذا هي خربة فارتاب الطبيب أيضا فخرج صاحبه فقال له: ومع هذا البطء جئت لنا بصيد، فلما سمعها الطبيب هرب فخرجا خلفه سراعاً فما خلص إلا بعد جهد وشر.، وأيضاً وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن، وكانوا عشرين قرية، فبادت منها ثماني عشرة لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار، وبقيت أنعامهم وأموالهم لا قاني لها، ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلها، بل كان من اقترب إلى شيء من هذه القرى هلك من ساعته، نعوذ بالله من بأس الله وعذابه، وغضبه وعقابه، أما القريتان الباقيتان فإنهما لم يمت منهما أحد ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم، بل هم على حالهم لم يفقد منهم أحد فسبحان الحكيم العليم. هذه الحوادث فيها عبرة و عظة فقد ظهر في هذه الأزمة من المعاصي اكثر مما ظهر في الماضي و قد قال الله تعالى : (و ما هي من الظالمين ببعيد) كلمة لابن القيم لمن شاهد بعض الأمور المغيبة قال ابن القيم / الروح/ (بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر و هذا في حفرة من حفر النار لا يصل حرها إلى جاره وذلك في روضة من رياض الجنة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره ،وقدرة الرب تعالى أوسع وأعجب من ذلك ،وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علما إلا من وفقه الله وعصمه، فيفرش للكافر لوحان من نار فيشتعل عليه قبره بهما كما يشتعل التنور فاذا شاء الله سبحانه أن يطلع على ذلك بعض عبيده أطلعه وغيبه عن غيره، إذ لو اطلع العباد كلهم لزالت

كلمة التكليف والإيمان بالغيب ولما تدافن الناس كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنع قال: (لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع)، ولما كانت هذه الحكمة منفية في حق البهائم سمعت ذلك وادركته كما حادت برسول الله بغلته وكادت تلقيه لما مر بمن يعذب في قبره وقال أبو عبد الله محمد بن الرازي الحراني أنه خرج من داره بعد العصر بآمد إلى بستان قال فلما كان قبل غروب الشمس توسطت القبور فاذا بقبر منها وهو جمرة نار مثل كوز الزجاج والميت في وسطه فجعلت أمسح عيني واقول: نائم أنا أم يقظان؟ ثم التفت إلى سور المدينة وقلت: والله ما انا بنائم ثم ذهبت إلى أهلي وأنا مدهوش فأتوني بطعام ،فلم استطع أن آكل، ثم دخلت البلد فسألت عن صاحب القبر فإذا به مكاس قد توفى ذلك اليوم فرؤية هذه النار في القبر كرؤية الملائكة والجن تقع احيانا لمن شاء الله ان يريه ذلك ، وروي أن إسحاق بن إسماعيل قال: حدثنا سفيان بن داود بن شاور عن أبي قزعة رجل من أهل البصرة عنه أو عن رجل قال مررنا في بعض المياه التي بيننا وبين البصرة إذ سمعنا نهيق حمار فقلنا ما هذا النهيق؟، فقال هذا رجل كان عندنا فكانت أمه تكلمه بالشيء فيقول لها انهقي نهيقك فلما مات سمع هذا النهيق عند قبره كل ليلة. القبور / ابن أبي الدنيا قال القرطبي / في التذكرة يروى أنه كان بمصر رجل ملتزم مسجداً للأذان و الصلاة ، و عليه بهاء العبادة و أنوار الطاعة ، فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان ، و كان تحت المنارة دار لنصراني ذمي ، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار ، فافتتن بها و ترك الأذان ، و نزل إليها و دخل الدار فقالت له: ما شأنك ما تريد؟ فقال: أنت أريد ،فقالت: لماذا؟ قال لها: قد سلبت لبي و أخذت بمجامع قلبي، فقالت: لا أجيبك إلى ريبة ، فقال لها: أتزوجك، فقالت له: أنت مسلم و أنا نصرانية و أبي لا يزوجني منك قال لها: أتنصر .قالت : إن فعلت أفعل ، فتنصر ليتزوجها ، و أقام معها في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات ، فلا هو بدينه و لا هو بها ،فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سوء العاقبة و

سوء الخاتمة، وقال الفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن أحمد القصري رحمه الله أنه توفي بعض الولاة بقسطنطينية فحفر له ، فلما فرغوا من الحفر و أرادوا أن يدخلوا الميت القبر إذا بحية سوداء داخل القبر ، فهابوا أن يدخلوه فيه، فحفروا له قبراً آخراً ، فلما أرادوا أن يدخلوه إذ بتلك الحية فيه فحفروا له قبراً آخر، فإذا بتلك الحية فلم يزالوا يحفرون له نحواً من ثلاثين قبراً و إذا بتلك الحية تتعرض لهم في القبر الذي يريدون أن يدفنوه فيه ، فلما أعياهم ذلك سألوا ما يصنعون؟، فقيل لهم: ادفنوه معها، نسأل الله السلامة و الستر في الدنيا و الآخرة الحياة السعيدة، فإن الله سبحانه وتعالى يعطي الحياة الطيبة للمستقيمين على شرعه، كما قال عز وجل: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طيبة... الآية) سورة النحل/97، كما أنه يعطي المعيشة الضنك لمن يعصي الله تعالى، كما أخبر عز وجل: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضنكاً.... الآية) /سورة طـه124، قال السلف في الحياة الطيبة: الرزق الحلال، وقيل هي القناعة، وقيل التوفيق إلى الطاعات، وقيل المسرة والسعادة، وقيل حلاوة العبادة ولذتها، وقيل الاستغناء عن الخلق واتباع الحق، والحياة الطيبة تشمل جميع أنواع الراحة الدنيوية أياً كانت، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه).رواه مسلم، وأما المعيشة الضنك فإنها تكون بأمور كثيرة يحس بها العاصي، قال ابن القيم رحمه الله: "وآثار الحسنات والسيئات في القلوب، والأبدان، والأموال أمر مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وكما أن للحسنة نوراً في القلب، وضياءً في الوجه، وقوة في البدن، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، فإن للسيئة في المقابل سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق" ، وكذلك فإن المعاصي تورث قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وخمول الذكر، وإضاعة الأوقات، ونفرة الخلق، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، وحرمان العلم، ولباس الذل، وضيق الصدر، والهم،

والغم، وهكذا تتوالد هذه الآفات بسبب المعاصي، والحرمان من السعة في الرزق بسبب الذنوب أمر واضح، فإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وقال الحسن رحمه الله لما شكى إليه رجل الجدب قال له: استغفر الله، وشكى إليه آخر الفقر فقال: استغفر الله، وشكى إليه آخر جفاف بستانه فقال: استغفر الله، وشكى إليه آخر عدم الولد فقال: استغفر الله، ثم تلا عليه قوله تعالى: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أنهاراً) سورة نوح10-12، ولذلك فلا تعجب إذا كانت المعاصي سبباً للطرد من وظيفة، أو تحصيل إنذار في العمل، ومتعاطو المخدرات من أشد الناس فقداً لوظائفهم بسبب معاصيهم، وقد يترتب على المعاصي إتلاف عين المال، كما وقع لأصحاب الجنة، الذين أتلف الله جنتهم وبستانهم بآفة سماوية أهلكت بستانهم وثمارهم فأحرقتها، وجعلتها هشيماً يابساً كما قال عز وجل: (فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ *فَأَصْبَحَتْ كالصريم)سورة القلم19-20، ولا تعجب يا عبد الله من هلاك مال العاصي، لأن هناك ملائكة تدعو عليه، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً).رواه البخاري، قال ابن حجر رحمه الله: وأما الدعاء بالتلف فيحتمل تلف ذلك المال بعينه، وقد يكون بمحق بركة المال، كما قال تعالى: يَمْحَقُ اللهُ الربا سورة البقرة276، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، تذهبه النفقات، والفواتير، والأمراض، وغير ذلك من وجوه تنفتح على صاحب الربا تمتص ماله وتذهبه، وهذا ذهاب عين المال، وأما ذهاب البركة فلا يحس له بفائدة ولا يطعم منه خيراً، إن هذا المعنى موجود في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قِله).رواه ابن ماجه وهو حديث حسن، وكذلك فإن هؤلاء الباعة الذين يغشون، ويدلسون، ويخفون عيوب السلع، وينزعون الملصقات المكتوب عليها بلدان التصنيع الحقيقية، ويضعون ملصقات أخرى لبلدان

تصنيع وهمية، ونحو ذلك من أنواع الغش الذي يمارسونه في السوق، حتى قل ما تجد صندوق خضرة أو فاكهة إلا ووجدت الرديء في أسفله مغطى بطبقة جيدة فوقه، غش متكاثر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في هؤلاء الباعة:(البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما)، ولذلك تجد كثيراً من هؤلاء الباعة بركة أكاسبهم ممحوقة، لا يستمتعون بمال، فإذا حلفوا على الكذب فإن (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة)، كما روى البخاري رحمه الله في صحيحه، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن آثار المعاصي في الحرمان من الرزق بقوله: (ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، أي القحط وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا)، وقد يجعل الله سبحانه وتعالى هذا الحرمان أمراً داخلياً في نفس العاصي، فلو ملك كنوز الدنيا فهو لا يزال يحس بالجوع والحرمان؛ لأنه لا قناعة لديه، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم:(من كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له)، فتأمل في قوله عليه الصلاة والسلام: (جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله)، فهما كان عنده من الأموال فلا قناعة تريحه، ويحس دائماً بأنه منقوص مبخوش، ولو كان عنده ملايين فالشر يعذبه، والحرص والجشع يحطمه، وهكذا لا يستمتع بمال، ثم إن للمعاصي آثاراً سيئة على مرتكبيها في أنفسهم وأبدانهم بما يصابون بالمسخ والأوجاع والأسقام والأمراض، إن هذه المصائب قد تكون أوجاعاً ظاهرة، وقد تكون أوجاعاً نفسية، فأما الظاهرة فقد تكون بسبب عقوبة شرعية حدية، أي بالحدود والتعزيرات كقطع يد السارق، وجلد شارب الخمر، ورجم الزاني، ونحو ذلك، وقد تكون عقوبة قدرية في بدنه، فقد تكون على شكل مسخ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: (يكون في آخر هذه الأمة)، ونحن في آخر الأمة نترقب حدوثه،(يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف)رواه الترمذي وهو حديث صحيح، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ليكونن

من أمتي أقوام يستحلون الحر) أي: الزنا (والحرير)، ثم قال: (يمسخ منهم آخرون قردة وخنازير إلى يوم القيامة)، فهذا مسخ حقيقي سيحدث بسبب المعاصي، فيصبح هؤلاء وقد مسخهم الله قردة وخنازير فيراهم الناس في صباح ذات يوم قردة وخنازير، فهذه عقوبة حسية جسدية بالمسخ، وقد تكون بتسليط جنود الله الكونية، مثل هذه الميكروبات والفيروسات على أجساد العصاة فيصيبهم من الآفات ما الله به عليم، كما أخبر عليه الصلاة والسلام: (لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا)..ومن تأمل ما حصل في هذا الزمان من الأمراض العجيبة التي ليس لها علاج كمرض الإيدز وغيره عرف أن هذه الإصابات عقوبة إلهية؛ لأنه مرض لم يكن في أسلافنا الذين مضوا، فتنتشر هذه الآفات وتفتك بالملايين، ويقف الأطباء حيرا أمام هذه الأقدار الإلهية والعقوبات الربانية، لا يستطيعون بالرغم من تقدم علومهم وتطور آلاتهم وأجهزتهم، ودقة مختبراتهم أن يقضوا على هذا المرض، بل لا زال ينتشر ويتفاقم ويردي كل يوم بالآلاف وينتشر بالملايين، وهكذا يعاقب الله على المعاصي في الدنيا، ناهيك عن غير ذلك من الأمراض الجنسية وغيرها، التي تصيب الناس بسبب وقوعهم في الزنا واللواط، وهذه القاذورات التي حرمها الله تعالى، وقد يكون المرض والألم مرضاً نفسياً وأوجاعاً داخلية ربما تفاقمت وزادت على بعض الأمراض الحسية، فالعبد قد يصيبه ألم حسي فيطرحه عن قلبه، ويقطع التفاته عنه، ويجعله في شقاء دائم، وهذه الآلام النفسية قد تكون عند بعض المسلمين بسبب تأنيب الضمير من جراء المعاصي التي وقعوا فيها، وقد تكون عند متبلد الإحساس كآبة، ووسوسة، وهواجس، وحزناً، وخوفاً، وإقداماً على الانتحار، وإصابة بالجنون، ومن تأمل الازدياد المريع في الحالات النفسية والأمراض التي انتشرت، وزاد أعداد رواد عياداتها ومستشفياتها لعلم قدر ما تؤدي إليه المعاصي من الفتك الذريع في نفوس هؤلاء، رعب داخلي، ووسوسة مستمرة، خوف، وهلع، قلق، وأرق لا يأتيه النوم بسبب أي شيء؟ ولكنها

المعاصي، ويطلق زوجته، ويشرد أولاده، ويهجر أقرباءه، وهكذا يعيش العصاة، مطاردون، والبلاء داخل نفوسهم، فكيف يهربون، والله يعاقبهم من الداخل والخارج، وكذلك فقدان الأمن من أسباب المعاصي فتحدث المشكلات الكثيرة بسبب انتشارها، ويخاف الناس من بعضهم، وعلى أولادهم وممتلكاتهم بكثرة المعاصي، وتسليط الأعداء من أسباب المعاصي أيضاً، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال:(بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم)، فإذا نزعت المهابة من صدور أعدائنا فتسلطوا علينا بأنواع التسلط فلا عجب في ذلك، وإذا صار بأسنا بيننا بسبب المعاصي، والانحرافات العقائدية، والعملية فلا غرابة في ذلك، وإذا كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لما عصوه في "أحد" وابتدروا الغنائم وتركوا المكان عوقبوا بتلك المصيبة العظيمة، كما جاء في الرواية: فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً، فما بالك بنا نحن ونحن أقل إيماناً وأضعف؟!، ولذلك كان تسليط الأعداء علينا في هذا الزمان سبباً مباشراً، وطبيعياً لما حدث عندنا من الانحرافات والمعاصي، ثم إن لله جنوداً يسلطهم من ريح مدمرة، أو زلازل مهلكة، أو براكين، وهزات أرضية، وصواعق، وخسف، وغير ذلك، وحتى عامة المسلمين يحسون بهذا، ولذلك وقعت مشاجرات في تركيا بين بعض من عامة المسلمين، وأصحاب الملاهي، والخمارات، وقالوا لهم عياناً: أنتم سبب نكبتنا، وقام بعض العامة بالهجوم على شاب يقبل فتاة في الشارع بعد الزلزال بوقت، لا زالت الكارثة في أذهانهم ونفوسهم، ليقولوا وهم يهجمون: هذا سبب البلاء الذي نزل بنا، ولكن أصحاب الغفلة لا زالوا يصرون على تعليل هذه المصائب بأمور دنيوية، وأنه لا علاقة للمعاصي بالقضية، ولا لترك الإسلام، وإذا كان المكان الذي ضربه الزلزال هو الذي اتخذ فيه قرار مواجهة المسلمين، وكذلك الإصرار على تنحية شرع الله، وليتهم يتعظون، فها هم يسنون القوانين لأجل تغيير أحكام قوامة الرجل على

المرأة، بحيث تخرج وقتما تشاء، وتكون حرة في حياتها، وتشاركه في المقابل في النفقة ولا يستقل بها، وهذا عين الفساد الذي أصاب الأسر الغربية، ولكن الله إذا طمس البصائر فلن تملك لهؤلاء هادياً، ولا نوراً يدخل إلى قلوبهم، وإن من أشد العقوبات على العاصي الحرمان من نور العلم، فقد قال الله تعالى(وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ... الآية) سورة البقرة282، فجعل التقوى سبب تعلم العلم، ولذلك تكون المعصية في المقابل وهي ترك التقوى سبب الخذلان والحرمان من العلم ، وقال بعض السلف لآخر من أهل العلم يوصيه: "إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية." وصية عظيمة من مالك للشافعي، لما رأى فطنته وذكاءه، يوصي بها كل مدرس كل طالب يرى عليه مخايل الذكاء والنجابة والفهم العميق، فيقول: لا تطفئ ذلك بظلمة المعصية، وكم من نجباء وأذكياء ضاعوا في خضم المعاصي فلم ينفعهم ذكاؤهم، ولم يتوجه إلى خيرهم ونفعهم ولا نفع غيرهم من المسلمين. وقد يكون للطائع من التوفيق في اتخاذ القرارات في الطاعات في بعض المسائل التي لا يعلم حكمها ويقع فيما لا بد من اتخاذ قرار فيه فيصيب الحق بنور الطاعة، بينما يخسر آخرون كثيرون، فلا يهديهم الله تعالى لإصابة الحق، فإن من أساسيات طالب العلم البعد عن المعاصي حتى يوفقه الله للفهم ويمكنه من التعلم، وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ الله) البقرة282.ومن الآثار الفظيعة للمعاصي والذنوب النفور الاجتماعي الذي يصاحب العاصي، فالمعاصي تلحق بصاحبها بغضاً، ومعاداة، ونبذاً اجتماعياً رهيباً، والله تعالى لما أمر بإقامة حد الزنا قال: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ المؤمنين) سورة النور2، فأراد الله إلحاق الأذى والذل بهؤلاء، وعدم الشفقة عليهم، وأن تكون الفضيحة بحضرة مجمع من الناس ليكون أبلغ في الزجر والإهانة، ويحدث النفور الاجتماعي والبغض في قلوب الخلق، وكذلك تغريب عام للزاني، تغريب عام فتحصل الوحشة في قلبه، وهكذا تكون الحدود من أسباب إهانة هؤلاء، ثم إن

الشهادة عند القاضي المردودة بالمعصية من آثار هذا، وقد قال عز وجل: (وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الفاسقون) سورة النور4، فالله تعالى حكم عليهم بالفسق وأمر أن لا تقبل شهادتهم، وسلب اسم الإيمان عنهم، وألحقهم بأسماء الفسق بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمان سورة الحجرات11، وَلَمّا أَذْنَبَتْ بَنُو إِسْرائيلَ وَجاهَرَتْ بِالمَعاصِي ، سَلَّطَ اللهُ عَليهِمُ الرُّومَ فَسَبَوْا نِساءَهُمْ وَسَلَبُوا أَمْوالَهُم وَسَفَكُوا دِماءَهُمْ، وَمَرَّ الأَعْمَشُ عَلى صُنّاعِ قُدورٍ فَقالَ : هؤُلاءِ أَوْلادُ الأَنْبِياءِ ، يَوْمَ كانُوا عَلى الطّاعَةِ كانُوا أَعِزَّةً ، فَانْظُروا إِلى ما صَيَّرَتْهُمُ المَعاصِي وَالذُّنوبُ . (وأنَّ اللهَ ليسَ بظَلاّمٍ للعبيدِ) ، ولنا عِبرةٌ فيما جرى في الأُمم قَبلَنا مِن الذل والخوف والعذابِ ، يوم خالطوا المعاصي والآثام ، فعمَّهُم اللهُ بالعقابِ والعذابِ . قالت زينبُ بنتُ جَحشٍ: فقلتُ يا رسولَ الله أَنهلِك وفينا الصالحون ؟ قال: نعم ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ، وعلى سبيل المثال : ما فعلَه هولاكو التَّتَري بأهل بغداد ، فقد ذكرَ ابنُ كثير في البداية والنهاية شيئاً من ذلك ، وأنا أنقُلُه لك مُختصَراً وبتصرفٍ يسير للعِبرَةِ والعِظَة : يوم دخل التتارُ بغداد صادَروا الأموالَ ، وهَتكوا الأعراضَ ، وسَفكوا الدماءَ ، وأسَروا ألفَ بِكْرٍ من دار الخلافةِ ، للعَبثِ بِهِنّ وإذلالِهِنّ، فقَتلوا خلقًا كثيراً مِن الرجال والنساء والشيوخِ والأطفال ، وقَتلوا القضاةَ والعلماءَ واختبَأَ الناسُ في الحاناتِ والمساجدِ ، فدخلَ عليهِمُ التَّتَرُ فذَبَحوهُم كالشياه حتى سالتِ الدماءُ مِن الميازيبِ ، وأحرَقوا المساجدَ ، وعمَّتِ العقوبةُ، ثم عادت بغدادُ بعد الأُنسِ والأمْنِ والأمانِ ورغدِ العَيش والاجتماعِ والحياةِ إلى حُزنٍ وخوف وجوعٍ ومَرضٍ ومَوت ، عَمَّتِ العُقوبةُ فتعطَّلتِ الجُمَعُ والجَماعاتُ في بغدادَ شُهوراً ، لم يُسمع فيها أذانٌ ولا إقامةٌ ولا صلاةٌ، وامتلأتِ الجُثثُ في الطُرُقات ، فخرجَ مَن كانوا في المزابلِ والحُشوشِ مُختَبئِين بعدَ خُروج التَّترِ ، وإذا بريحِ جُثَثِ الموتى تُصيبُهم فماتوا عَن آخِرِهم . في أقلَّ مِن أربعين يوماً قُتِل مِن أهلِ بغداد أكثر مِن مَليوني إنسان ، فاجتمعَ على الناس الغلاءُ والوباءُ والمرضُ والخوف والموتُ والبكاءُ ، فعَمَّتِ

العُقوبةُ ، والسببُ الرئيسي هي الذنوبُ والمعاصِي . وفي زماننا هذا كَثُرت بما يُسمَّى بالكوارث الطبيعيةِ كالزلازل والفيضانات والسيولِ المُهلِكةِ ، وما نَنْتَهي مِن بَلِية إلا وتَبِعتْها بلايا أُخرى أشَد مِن سابِقتِها ، وهذا مِصداقُ ما أخبر عنه المُصطفى صلى الله عليه وسلم يوم قال: (بين يديِ الساعةِ مُوتانٌ شديدٌ ، وبعدَه سنواتُ الزلازلِ)، والسؤال: ما أسبابُ كثرةِ ما يُسمَّى بالكوارث الطبيعيةِ ، إضافة إلى بَلايا الغَلاءِ والوباء والحروب والخوفِ وكثرة الفتنِ؟ السببُ الأعظم في ذلك كُله: الذنوبُ والمعاصي ، وصدق اللهُ!:(وما أصابَكُم مِن مُصيبَةٍ فَبما كَسَبَتْ أَيْديكُم وَيَعفو عَنْ كَثير) [الشورى:30]والبلاءُ إذا نزلَ فإنه لا يَنْزِل غالِباً إلا في ظُلماتِ الليل والناسُ غافِلون آمِنُون ، ودليلُ هذا ما ذَكر اللهُ سبحانه :(أفأَمِنَ أهلُ القُرى أن يأتِيَهُم بأْسُنا بَياتاً وهُم نائِمون ، أَوَ أَمِنَ أَهلُ القُرى أنْ يَأْتِيَهُم بَأْسُنا ضَحَى وهُم يَلعبون ، أَفَأَمِنُوا مَكرَ اللهِ فلا يَأْمَنُ مَرَ اللهِ إلا القومُ الخاسِرونَ)[الأعراف:97-99] والبلاءُ لا يَنْزِلُ غالِبا إلا والناسُ في غَمْرَةِ الأمْنِ والسَّعادَةِ والسُّرورِ ، فيُبَدِّلُ السعادةَ حُزْنا ، والأمْنَ خَوْفاً ، والرَّغَدَ جوعاً وعطَشاً ، قال اللهُ سبحانه : (فلمّا نَسُوا ما ذُكِّروا بهِ فَتَحنا عَلَيهِمْ أَبوابَ كُلِّ شَيءٍ حتَّى إذا فَرِحوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُم بَغْتَةً فَإِذا هُم مُبْلِسونَ) [الأنعام: 44] قال المُفسِّرُ السَّعْديُّ : يُؤخَذُوا على غِرَّةٍ وغَفْلَةٍ وطُمأنينةٍ ، ليكونَ أشَدَّ لِعُقوبتِهم ، وأعظمَ لِمُصيبَتِهم . ([9])ولنا عبرةٌ : أُصِبنا ببَلايا ونكَباتٍ ، لو كانت القلوبُ تَعقلُ لكَفَتْنا بَلِيَّةٌ واحِدة ، فكيف وهي مُجتَمِعةٌ! وفي الأثَر: إذا رأيتَ العبدَ يُعطَى على مَعاصيه فإنما هو استِدراجٌ قد مُكِر به، وفي أثَر آخرَ: إذا أرادَ اللهُ بقومٍ عذاباً فتحَ عليهِمُ الدنيا ،(فُتِح لقارون الدنيا ، ولكن أُخِذ في كامِل زينتِه وأَمْنِه وسُرورِه وغِناهُ) . والعذابُ إذا حَلَّ فإنه لرُبَّما يكونُ في يوم عيدٍ وفرَحٍ والناسُ آمِنون مُطمئِنّون فَرِحون! ،فبركانُ جزيرة الطّيْر في الحُدَيْدَة في اليمنِ ، كان في العشر الأواخرِ من رمضان ، أي قبل العيد بأيام يسيرةٍ ، انفجرَ البركانُ مِن جَبل في وسَطِ البحر ، فاختلط نارُ البركان بِماء البحر، والله ما استطاعت أقْوَى القُوى مِن القُرْبِ مِن النار فضلاً عن إطفائِها ، وهذا في

نارِ دُنيا فكيف بنار الآخِرة والتي فَضّلت عن نار الدنيا بتسعةٍ وسِتين جُزءاً ! ،وانْهِيارُ صَخْرٍ في قَريَةِ "بَنِي مَطَر" في صنعاءَ كان في العشر الأوائِل من ذي الحِجة ، أيْ قبل العيد بأيام يسيرةٍ ، انْهار جُزءٌ مِن صَخْرِ جَبلٍ على بُيوتِ الناسِ في ظُلْمَةِ الليلِ فمات مَن ماتَ مَدفونا تَحتَ الأنقاضِ ، وبَقِيَ منْ بَقِي بلا بيتٍ ولا مَأْوَى ولا طَعام أو كِساءٍ ، ففَقَدوا الأولادَ والأحبابَ في طَرفةِ عَيْن، وسيلُ مدينة جِدَّةَ كان يومَ عرفةَ أي قبل العيد بيومٍ ، ارتفعَ السيلُ لعشراتِ الأمتارِ ودهَم البيوتَ وجرفَ كلَّ شيءٍ كان أمامَه ، فصاروا مَفقُودين بعد أن كانوا مَوْجودين وباكين بعد أن كانوا ضاحِكين ، ماتوا على فُرُشِهم ليلةَ عيدِهم قبل لُبْسِ جَديدِهم ، وفي صباحِ العيد يَبحَثون بين الأنقاضِ عن الآباءِ والأُمهات والأطفال والأحبابِ في المياهِ بين الرُّكام والدَّمار ! أمَّلوا الفرحَ والسُّرور والبقاءَ ، ولكن قُدِّر عليهِم الدَّمارُ والفناء مع البُكاء في طرفة عَين إذا هم يَبكون ، إذا هم مَحرومون ، لا بيت ولا طعام ولا كِساء ، وخسارات بالمِليارات . والسعيدُ من اعتَبَر بغيرِه .

[الفصل الثالث]

حال العصاة قبل الموت

للعاصي قبل الموت لندم وبكاء وعذاب ومرض أو أن يأخذه الله بغتة ففي الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد عن البراء بن عازب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((وإن العبد الكافر ، وفي رواية الفاجر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة (غِلاظ شداد)، سود الوجوه معهم المُسوحُ من النار، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء مَلَك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول، أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخَط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعُها كما ينتزع السفود (الكثير الشعب) من الصوف المبلول تتقطَّعُ معها العُروقُ والعصبُ)

ثانيًا: لا تُفتح له أبواب السماء: كما جاء في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد: (إن العبد الكافر إذا كان في انقطاعٍ من الدنيا وإقبال من الآخرة - يعني عند الاحتضار - نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخَطٍ من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على وجه

الأرض، فيصعدون بها فلا يمرُّون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: لفلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يُسمَّى بها في الدنيا، حتى يُنتهى بها إلى السماء الدنيا، فيُستَفتح له فلا يُفتَح له، ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: 40]). ثالثًا: تُبشِّره الملائكة بما يسوؤه : أخرج ابن ماجه والإمام أحمد من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسَّاق، وآخر من شكْله أزواج، فلا يزال يُقالُ لها ذلك حتى تخرج، ثم يُعرَج بها إلى السماء، فلا يُفتَح لها، فيقال: مَن هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة؛ فإنها لا تفتح لك أبواب السماء، فيُرسل بها من السماء ثم تصير إلى القبر))؛ (حسنه الألباني في "تخريج المشكاة": 1628). رابعًا: تخرج روحه كأنتن جيفة: أخرج النسائي وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضًا، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -:(وإن الكافر إذا احتُضر أتته ملائكة العذاب بمِسْح، فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطًا عليك، إلى عذاب الله، فتخرج كأنتن ريح جيفة، حتى يأتون به باب الأرض، فيقولون: ما أنتن هذه الريح، حتى يأتون به أرواحَ الكفار))؛ (السلسلة الصحيحة 3: 294)، وفي رواية عند النَّسائي والحاكم: ((وأما الكافر، فتأتيه ملائكةُ العذاب بمِسْح، فيقولون: اخرجي إلى غضب الله تعالى، فتخرج كأنتن ريح جيفة، فيذهب به إلى باب الأرض)). وفي رواية: ((وأما الكافر إذا قُبِضَت نفسه، وذُهِب بها إلى باب الأرض، تقول خزنة الأرض: ما وجدنا ريحًا أنتنَ من هذه، فيبلُغ الأرض السفلى))؛ (قال الألباني في الصحيحة: (263/3): صحيح الإسناد، والأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخ). وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وإن الكافر إذا

خرجت رُوحُه قال: وذكر من نَتَنها وريحها) ، وقال تعالى: ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: 2]، في الآية إخبار عنهم أنهم سيَندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنَّون لو كانوا في الدنيا مع المسلمين، وقيل: إن المراد أن كل كافر يودُّ عند احتضاره أن لو كان مؤمنًا؛ (تفسير القرآن العظيم: 2/ 544). وقال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ *لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون ﴾ [المؤمنون: 99، 100]، فقد هجمت عليه منيَّته، وأحاطت به خطيئته، فانكشف له الغطاء، وتبَدَّدت له موارد الشقاء، فصاح: وخيبتاه! واثكل أماه! واسوء منقلباه! هيهات هيهات! ندِم والله حيث لا ينفعه الندم، وأراد الرجوع لعمل الصالحات بعدما زلَّت به القدم، فخرَّ صريعًا لليدين والفم، إلى حيث ألقتْ رَحْلها أم قَشْعَم (كناية عن الموت).

فهذا حال الكفار والعُصاة إذا نزل بهم الموت، يتمنَّون أن لو رجعوا إلى الدنيا، فإن كان كافرًا لعله يُسلِم، وإن كان عاصيًا فلعله يتوب، ولكن الإيمان لا يُقبَل إذا حضر الموت، والتوبة لا تنفع إذا غرغر العبد، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: 17، 18]. وقد ذكَر الحافظ ابن كثير في "تفسيره" حديثًا رواه الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن الحبيب النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن اللهَ يقبل توبة العبد ما لم يُغَرغِر))، وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ ﴾، فكل مَن تاب قبل الموت، فقد تاب من قريب. ونقل ابن جرير الطبري في "تفسيره" (9/8) عن الحسن البصري، أنه قال: "ما لم يُغَرْغِر". فعلى المرء المُفرِّط أن يُسارِع بالتوبة قبل حلول الأجل وتمنّي الرجوع للتوبة وإصلاح الزاد ليوم الميعاد، لكن حيل عند الموت بينه وبين ما يشتهي، كما قال رب العالمين في كتابه الكريم: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ

وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: 54]، وزارع الشوك لا يجني به عنبًا.(انظر الإيمان باليوم الآخر؛ للصلابي ص 27-28).

وقفة: لا يقتصر طلبُ أهل الكفر والفسوق والضلال الرجعة عند الاحتضار فقط، بل يطلبون الرَّجعة للدنيا مرة أخرى عند النشور، وعند العرض على الله، وحين يُعرَضون على النار، وحين يدخلونها، وهم يطلبون الرجعة إلى الدنيا للتوبة، وإصلاح الزاد ليوم الميعاد، لكن حيل بينهم وبين ما يشتهون. قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ *لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: 99، 100].وقال تعالى: ﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [المنافقون: 10]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: 44]. وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ [الأعراف: 53]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فارجعنا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 12]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: 27، 28]. وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [الشورى: 44]. وقال تعالى: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [غافر: 11]. وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ

تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴾ [فاطر: 37].خلاصة ما يُلاقيه الفاجر أو الكافر عند خروج رُوحه رؤيته لملائكة العذاب ومَلَك الموت ويا لها من رؤية توبيخ الملائكة إياه، ولعنه، وتبشيره بسخط الله وغضبه وعذابه يعلم مكانه من النار قبل موته: ﴿ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴾ [الفرقان: 22]. - ضرْب الملائكة له بالمقامع، لوجهه ودُبره، وما ظنُّك بضرب الملائكة؟! والله لا تتصوَّره العقول، ولا تُحيط به الأذهان، ولا طاقة للبشر به فشدة نزْع رُوحه من جسده حتى تتقطَّع العروق والأعصاب ،ثم وضْع رُوحه في مُسوح من النار، ثم لعنة كل مَلَك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء له ، يخرج منها كأنتن ريح جيفة على وجه الأرض، تُغلَق أبواب السماء دونه، ليس من أهل باب، إلا وهم يدعونه ألا تَعرُج رُوحه من قِبلهم ، يُنادونه بأقبح أسمائه التي كان يُسمَّى بها في دار الدنيا، قول الله: ((اكتبوا كتابَ عبدي في سجين))؛ أي: في الأرض السفلى، ويا له من سجن وحبس وضيق، تُطرح رُوحه من السماء طرحًا حتى تقع في موضع جسده؛ دعاؤه بالويل على نفسه عند حملِ جنازته، يا ويلها أين تذهبون بها؟، وأخيرًا، يُنادي منادٍ من قِبل السماء: ((أن كذَب عبدي))، ولو لم يكن له من العقاب إلا هذا لكفى ، لا يستطيع الإجابة على أسئلة المَلَكين، يُضَيَّق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، يُمثَّل له عمله الخبيث على صورة رجلٍ أسود الوجه، قبيح الثياب، مُنتن الريح، فيقول له: أبشِر بالذي يسوؤك، يُقيَّض له أعمى أصم، فيضربه بمرزبة، لو ضُرِب بها جبل كان ترابًا ، يُفتَح له باب من النار، ويُمهَّد له فُرش النار ،المسوح: جمع المِسح (بكسر الميم)، وهو ما يلبس من نسيج الشعر على البدن؛ تقشُّفًا وقهرًا للبدن. ﴿ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: 57، 58]، قال ابن كثير في "تفسيره" (41/4): "أما الحميم: فهو الحار الذي قد انتهى حرُّه، وأما "الغسَّاق" فهو ضدُّه، وهو البارد الذي لا يُستَطَاع من شدة برده المؤلم؛ ولهذا قال - عز وجل -: ﴿ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص: 58]؛ أي: وأشياء من هذا القبيل، الشيء وضده يُعاقَبون بها".

وقال في تفسير [سورة النبأ] (464/4): "الغسَّاق: هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعَرَقهم ودموعهم وجروحهم، فهو بارد لا يستطاع من برده، ولا يُواجه من نتنة". المِسْح: كساء من شعر، وقد مرَّ بنا معناه ،هو حماد بن زيد (راوي الحديث). ((إلى آخر الأجل))؛ أي إلى "سِجِّين"، فهي مُنتهى الأجل، ويحتمل أن المراد: إلى انقضاء أجل الدنيا؛ (قاله القاضي كما في "شرح مسلم" 17: 205). قال النووي: "الرَّيطة": هي ثوب رقيق، وقيل: هي ملاءة، وكان سبب ردها على الأنف، بسبب ما ذكر من نتن ريح رُوح الكافر. حال العاصي في القبر ويوم الحشر ، وجاءت عقوبة الكذب في الحلم والتجسس والتصوير، عقوبة ذي الوجهين والنمام وعدم الاستبراء من البول، عصاة يعذبون في القبور، فيا عباد الله، لقد أنستنا الدنيا وزخرفها التفكر في أمر الآخرة، التي تبدأ من بعد الموت، وأنستنا الأخبار وما فيها التفكر في أمور الآخرة وما بعد الموت.

[الفصل الرابع]

حال العصاة في النار ويوم القيامة

-إن أحوال الناس تختلف يوم القيامة بحسب أحوالهم في هذه الحياة، فلا يكون مصير الناس سواء؛ لأن سلوكهم في هذه الدنيا ليس بسواء، قال الله سبحانه وتعالى: (لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ) [الحشر:20] وقال جل جلاله: أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ [القلم:35-36].. وقال سبحانه: (أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ) [ص:28].. وقال: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) [الجاثية:21] .فمن ظن أن مصير الناس يوم القيامة واحد فهو كافر وجاهل وجاحد، فليس المصير واحداً؛ لأن العمل هنا ليس واحداً، قوم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وخضعوا لشريعة الله، وساروا على منهج الله، وأحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم الله، وبكوا من خشية الله، وجاهدوا في سبيل الله، هل يستوون هم والمفسدون في الأرض الذين زنوا، وسكروا، ولاطوا، وقتلوا، وسرقوا، وارتكبوا ما حرم الله، ورفضوا جلَّ ما حرم الله، هل يكون مصير هؤلاء وهؤلاء واحداً؟ مصير الناس يختلف يوم القيامة بحسب اختلاف أحوالهم في هذه الدار.

تثبيت الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وإن من رحمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بنا أن نقل لنا في كتابه وفي سنة رسوله صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلِيهِ صوراً حية من أحداث يوم القيامة ومن أحوالها التي تكون لأهل الإيمان ولأهل الكفر والنفاق، حتى لكأن الإنسان ينظرها عياناً، وهذه فيها حكمتان ومصلحتان: الحكمة الأولى: تثبيت الإيمان بالرسول الكريم صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلِيهِ، إذ من أخبره بما يحدث يوم القيامة يخبرنا عن أمور لا تكون في هذه الدار، وما سمع بها أحد منذ آدم من غير الأنبياء والرسل-ذ، وما سمعنا أحداً بعده منذ مات إلى يومنا هذا يخبر ويتهدد ويتوعد ويَعد ويمني بجنة أو نار، فإن من توعد وهو لا يستطيع التنفيذ يعرف أنه من أكبر الكاذبين، وإذا وعد وهو يعرف أنه لا يفي يعرف أنه أحد الكاذبين، لكن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يهدد الكفار ويتوعدهم بالعذاب من مصدر القوة، والثقة بالله ثم بالنفس، ويعد المؤمنين ويمنيهم بالجنة من مصدر الثقة بأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سوف يعطيهم جزاءهم. جاء رجل اسمه العاص بن وائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد حمل في يده عظمة من عظام الأموات هشة وهو كافر، وقال: يا محمد أتزعم أن الله يعيدنا بعد أن نكون عظاماً ورفاتاً، وفتَّ العظم بيده أمام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكلمة الواثق المطمئن إلى وعد الله ووعيده قال: (نعم ويدخلك الله النار) ،فمات هذا الرجل على الكفر، فلو كان هذا الرجل أسلم لكان الوعد غير صحيح، إذ كيف يدخله الله النار وهو مسلم؟ لكن من علم الله الذي أعطاه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أخبره بأن هذا الرجل سيستمر على كفره ولن يسلم، رغم أن الناس في ذلك الوقت كانوا يدخلون في الدين وكان من المتوقع أن يكون هذا ممن يسلم، ولكن قال له: (ويدخلك الله النار) فمات كافراً، ونزل القرآن يؤيد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقول له: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً [يس:78] يعني: بالعظم وَنَسِيَ خَلْقَهُ [يس:78] الذي يخلق العظم، ومن هذا الذي خلق العظم! إن الذي خلق هذا العظم قادر على أن يعيد هذه العظام ولو صارت رماداً. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ

وَهِيَ رَمِيمٌ [يس:78]* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ [يس:79] القادر على البداية قادر على الإعادة، وله المثل الأعلى، إذ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) [يس:79]، (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ) [يس:80]* (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) [يس:81] (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [يس:82]، (فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [يس:83]. هذه هي الحكمة والمصلحة الأولى التي نجنيها من مشاهد أحوال الناس يوم القيامة، تثبيت الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ لو كان متقولاً ما وعد.

العظة والعبرة الحكمة الثانية: أننا نأخذ العظة والعبرة، ونعمل عملاً صالحاً، حتى لا نكون ممن يتعرضون لتلك الأحوال؛ لأن الكفرة والمنافقين كلٌّ يمقت نفسه ويزدريها، ويتمنى لو تسوى به الأرض، يقول الله عز وجل (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً) [النساء:41](يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً) [النساء:42] يودون أن تبتلعهم الأرض ويكونون عدماً، من المقت، والنكال والخزي، والعار، والعذاب والنار.

-في ذلك اليوم يحصل مقت، ويعني: ازدراء واحتقار للنفس، يقول: أحدهم مخاطباً نفسه: ما الذي أوصلني إلى هذه الحال المزرية، إنه سلوكي وتصرفاتي، يا ليتني لم أسرْ في هذا الطريق، يا ليتني أطعت الله يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا [الأحزاب:66].. يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ [الحاقة:25]* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ [الحاقة:26]* يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ [الحاقة:27]* مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ [الحاقة:28] ما نفعني مالي الذي كنت أتعب في جمعه هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ [الحاقة:29] فلقد ضاعت سلطتي، وانتهت مرتبتي ورتبتي، وضاع ملكي وجاهي،

فيقول الله للملائكة: خُذُوهُ فَغُلُّوهُ [الحاقة:30] يحصل للإنسان عندها مقت عظيم ذكره الله في القرآن في قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وهم في حالات المقت الشديد لأنفسهم يُنَادَوْنَ [غافر:10] وبنى الله الفعل هنا للمجهول لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ [غافر:10] يزدريكم ويحتقركم الله أكثر مما أنتم الآن تحتقرون أنفسكم وتزدروها؛ لأنكم وضعتموها في مكان كان بالإمكان أن تضعوها في غيره، لكن عصيتم الله بالزنا، وبالغناء، وبالكفر، وبالنفاق، وبالعجز، وبالتكاسل، وبالتسويف، وبالتكذيب، وضعتموها في هذا الموقف وقد جاءتكم الآيات، والله ما في الأرض أوضح من آيات كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إن الله أنزل إلينا قرآناً فيه ثلاثون جزءاً، أما يكفينا؟ يقول الله: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ [العنكبوت:51]

-أحوال الكفار والمنافقين يوم القيامة الأحوال الأخروية ثلاثة: 1- حالة الكفار والمنافقين..

2- وحالة العصاة.

3-وحالة المؤمنين جعلنا الله وإياكم منهم، وسوف نتحدث عن حالة الكفار والمنافقين يوم القيامة: عن ذلتهم، وهوانهم، وصغارهم، وخيبتهم وندامتهم، وذلتهم وهوانهم على الله يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى في وصف ذلتهم: يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً [المعارج:43] الأجداث: القبور كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج:43]* خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ [المعارج:44] أهل الإيمان لا تجد عليهم ذلة، بل لهم عزة وكرامة عند الله، ولهم فضل وفرح بلقاء الله، لكن الكفار ترهقهم ذلة وأبصارهم خاشعة، فترى المجرم لا يرفع رأسه؛ لأن وجهه أسود، وسلوكه سيئ فهذه حالتهم: خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ [المعارج:44] والرهق: هو الحركة المضطربة بقوة. إذا قيل: فلان يرهقه البرد فليس برداً فقط وإنما يرتعش، فهذه الذلة تأخذهم وترهقهم ذَلِكَ الْيَوْمُ

الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ [المعارج:44].والخروج من القبور بهذه الصورة يصور سرعة انطلاقهم إلى مصدر الصوت؛ لأنه ينادى يوم القيامة فيبعث من في القبور، يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً [المعارج:43] مسرعين منطلقين، ماذا حدث؟ يريدون سماع الصوت كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ [المعارج:43] مثلما كانوا ينطلقون إلى هذه الأنصاب، والأفراح، والزنا والمعاصي مسرعين، فهناك أيضاً ينطلقون مسرعين كأنهم على تلك الصفة خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ [المعارج:44].وبعد ذلك الصوت القوي، يقول الله عَزَّ وَجَلّ: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ [القمر:6]* خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ [القمر:7]* مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ [القمر:8] والحكمة من التصوير والتمثيل بالجراد؛ لأنه من أضعف الحشرات، ولعل منكم من أدرك فترة وجود الجراد في النهار خاصة، إذا ما جئت إليه وهو بين الزرع وأردت أن تنفره كيف هي حالته؟ وهل تخاف منه؟ هل يأكلك الجراد؟ لا. تنفره، وهو ينتشر من الرعب والخوف الذي أنت تطارده به، فيهرب منك. كذلك الكفار والمنافقون يوم القيامة خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ [القمر:7]* مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ [القمر:8] وبعد أن يقوموا يتأكد لديهم بأنه البعث، وأنه الذي كانوا يوعدون، فقد كانوا يكذبون بالبعث، ولم يكونوا مصدقين به، فلو كانوا يصدقون به لكان له أثر في حياتهم، ولكنهم كذبوا، وعندما يقومون من قبورهم يقولون كما قال الله عَزَّ وَجَلّ: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ [يس:51]* قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا [يس:52] وعندها يجيبهم أهل الإيمان فيقولون: (هَذَا) يعني: هذا يوم البعث هذا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ [يس:52] هذا وَعدْ الله لنا وصدق الرسول لنا فيصدقون، ماذا يقولون: وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ [الصافات:20] يدعون على أنفسهم بالويل والثبور وعظائم الأمور. جحوظ أعينهم وشخوص أبصارهم ثم تضيف الآيات الأخرى ملامح جديدة وأبصارهم في

حالة الخوف والشدة، حتى إن العين لتبرز جاحظة من الخوف، تكاد أن تخرج ولا يستطيع أن يغمضهما عن النار؛ لأن النوم وإغماض العين أمنة، تجد من يُخرج إلى السوق ليقتل تكون عيناه تدور شمالاً ويميناً، وينظر من أين سيأتي السياف ليقطع رقبته، ومن ذا يربطه، وأخيراً تغطى عينيه حتى لا يرى شيئاً، ويصور الله عَزَّ وَجَلَ هذا المشهد بعد خروجهم وأبصارهم شاخصة فيقول الله عَزَّ وَجَلَ: إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ [إبراهيم:42]* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ [إبراهيم:43] لا يمكن أن يطرف طرفةً واحدةً، فعينه انفتحت وشخصت وجحظت وبرزت، لم تعد تقدر على الإغماض حتى تتصلب لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء [إبراهيم:43] هواء من الخوف؛ لأن القلب هنا هو مصدر الخوف، إذا كان لديك خوف فهل يرتاح قلبك أو يضطرب؟ لو أن شخصاً أخبرك بخبر مخوف، تقول: إن قلبي يكاد أن يطير من الخوف، وإذا كان الخبر ساراً تجد في قلبك انشراحاً وطمأنينة، ويوم القيامة (وأفئدتهم هواء) كما قال الله عَزَّ وَجَلّ . فزعهم وهلعهم ثم يذكر الله عَزَّ وَجَلّ مشهداً آخر، وهو مشهد الفزع والخوف والهلع الذي يقتلع قلوب الناس يوم القيامة يقول الله عَزَّ وَجَلّ: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ [غافر:18]* يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ [غافر:19] والآزفة: القيامة، أزفت الآزفة، أزف الموعد، أزف الامتحان، أي: لا توجد فرصة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى سمى القيامة آزفة فإذا أزفت الآزفة فإن القلوب لا تبقى في الصدور كما هي الآن، وإنما تصعد إلى الحناجر إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ [غافر:18]* يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ [غافر:19].هذه القيامة -أيها الإخوة- يصورها الله لنا، فماذا أعددنا لها؟ أما هؤلاء فإلى أين يهربون يوم القيامة؟! يقول الله حكاية عن الكافرين: يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ [القيامة:10]* كَلَّا لا وَزَرَ [القيامة:11]* إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ [القيامة:12] فيؤتى بهم وهم مقرنون في الأصفاد، تجمع أيديهم مع أقدامهم إلى

رقابهم ثم يوضعون في قيد واحد. يقول الله عَزَّ وَجَلّ: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [إبراهيم:48]* وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ [إبراهيم:49]* سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ [إبراهيم:50] ملابسهم من القطران، أي: الزفت وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ [إبراهيم:50] الأيدي والأقدام والرقاب مقرنة كما تقرن البقر في الأضماد ، يقرنون في الأصفاد، وملابسهم الفاخرة تجدها من قطران أسود، وتشب على وجوههم النار ، ثم قال الله: لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [إبراهيم:51] إن الله سريع الحساب ولو أمهلهم، وفي هذه الأجواء يؤتى بهم على هذا الوضع المزرى مقرنين مكتفين وسرابيلهم من قطران، في تلك اللحظات يحصل شيء عظيم آخر وهو: أن الشمس تدنو من الرؤوس، تقترب منهم حتى تغلي رءوسهم كما يغلي اللحم في القدر، ،قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً [الفرقان:27]* يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً [الفرقان:28]* لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً [الفرقان:29] وبعد هذه الحسرات والندم وأكل اليدين يعيد الله له يده الأولى، وهكذا وفي تلك اللحظة يحصل عندهم يأس وإبلاس، والإبلاس هو غاية اليأس، يعني: عدم الرجاء، أي: لا يسلمون من هذا المصير، ولهذا يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ [الروم:12] وسمي إبليس؛ لأنه أبلس من رحمة الله، قال الله: وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ [ص:78] فليس عنده أمل بأنه ينال هذه الرحمة؛ ولذا سمي إبليس من الإبلاس، وهؤلاء يوم القيامة يبلسون أي: تتقطع آمالهم وينقطع رجاؤهم وييأسون من رحمة الله، وهذا أعظم العذاب؛ بأن ينقطع الرجاء، فالرجاء يجعلك على أمل. مثلاً: سجين يقولون له: هناك أمل أنك تخرج في يوم كذا وكذا، فيبعث في قلبه الطمأنينة، أما إذا قيل له: حكم عليك بالسجن المؤبد، كيف سيكون حاله؟ تجد أنه انقطع الأمل عنه ويحصل عنده اليأس، ويمر عليه اليوم كسنة؛ لأنه لا يوجد أمل ، إحباط أعمالهم كذلك أهل النار

عندما يدخلون النار يبلس المجرمون، وبعد ذلك يتعلقون ببقايا آمال في أعمال كانوا يصنعوها في الدنيا ظنوا أنها تنفع؛ لأن أعمال الكفار يوم القيامة تنقسم إلى قسمين: أعمال بغي وكفر وفساد، فهذه باطلة وفاسدة، ولا يرجون ولا يتوقعون من ورائها خيراً، وهذه شبهها الله في القرآن بالظلمات، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فوفاة حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [النور:39]* أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [النور:40] هذه الأعمال الباطلة ظلمات بعضها فوق بعض. وظلمات يظنون أنها تنفعهم يوم القيامة وهي: الصدقة، العتق، صلة الأرحام، الصدق في المواعيد، والمعاملة، والاتجار، لكن هذه نفعتهم في الدنيا؛ لأنهم لم يعملوها لوجه الله وإنما للدنيا، صدقوا في المعاملات لكي تنضبط أمورهم، أخلصوا في العمل لكي تشترى بضائعهم، ووصلوا أرحامهم لكي يبادلوهم بالمودة والمشاعر، وتصدقوا إلى جمعيات الحيوانات من أجل غريزة نفسية؛ فما نفعهم هذا العمل في الدنيا، يقول الله فيهم: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ [هود:15]* أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [هود:16]. حبط ما صنعوا في الدنيا والحبط: هو داء يصيب بعض المواشي، إذا أكلت بعض النباتات انتفخ بطنها، ثم حبطت ثم انفجرت يسمى (الحشر) ويقولون: الغنم (حَشَرَت) إذا أكلت طعاماً من ذرة لم تنضج، فهؤلاء يأتون ببطون يحسبون أن فيها شيئاً، لكن قال الله وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [هود:16].ويقول عَزَّ وَجَلّ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [الشورى:20] ويقول الله عَزَّ وَجَلّ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً [الإسراء:18].. وَمَنْ

أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً [الإسراء:19] فهؤلاء عملوا عملاً صالحاً ولكن ما أرادوا به وجه الله، فإذا جاءوا يوم القيامة ظنوا أنهم على شيء، قال الله: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ [النور:39] أي: أعمالهم الصالحة كَسَرَابٍ [النور: 39] السراب الذي في الصحراء، إذا رأيته في الظهيرة ترى كأنه ماء، فتقدم عليه وتشد نفسك إليه فكلما اقتربت ابتعد عنك، قال الله: يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً [النور:39] فهؤلاء عملوا عملاً كسراب، ويوم لقوا الله ما وجدوا شيئاً. ثم مثَّل الله عملهم بالرياح الشديدة التي تهب على الزروع والثمار اليانعة فتحطمها، قال الله عَزَّ وَجَلّ: مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ [آل عمران:117] يعني: الكفار، نفقاتهم، وصدقاتهم، وإغاثاتهم، وإعطاؤهم للجمعيات الخيرية، والبر وهم كفار؛ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ [آل عمران:117] ريح لا رياح، والريح أشد فِيهَا صِرٌّ [آل عمران:117] أي: فيها عواصف شديدة وصوت يصر ويقطع الأشجار فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [آل عمران:117] لديهم زروع وثمار من العمل لكن لديهم ريح فيه صر وهو الكفر، فأهلكت عملهم هذا والعياذ بالله. وقد شبه الله عملهم أيضاً بالرماد، وتصوروا رجلاً جعل الله أعماله كلها رماداً، والرماد نهاية النار، كما يقول المثل: (النار ما خلفت إلا رماداً) يضرب هذا المثل إذا وجد -مثلاً- رجل صالح وابنه فاسد فيقولون هذا المثل. فقد شبه الله أعمال الكفار الصالحة بالرماد، قال الله عَزَّ وَجَلّ: مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ [إبراهيم:18] تصور شخصاً معه رماد، والريح اشتدت فذهبت به، قال الله: لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ [إبراهيم:18] ولذا يجعل الله أعمالهم هذه كلها هباءً: وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً [الفرقان:23].في الحالة الأولى: لهم الذلة والصغار والنكال والعذاب ، ثم في الحالة الثانية: لهم إحباط العمل، فيقولون: عندنا عمل، فيحبطه الله فلا يبقى. تخاصم أهل النار الحالة الثالثة: وهي التخاصم

والتلاؤم والمعاذير، وكل شخص يتكلم على أخيه وزميله، يسبه ويلعنه ويحمله المسئولية على هذا، مثلاً: قُبض على أربعة سكارى وأدخلوهم السجن، فكل شخص يلعن الآخر في سجن الدنيا. أما في يوم القيامة فهو يحدث عندما يعاين أهل النار.. النار، ويرون العذاب وما هم فيه وما يحصل لهم. عداوة وكراهية بعضهم لبعض أولاً: كراهية وعداوة بعضهم لبعض يقول الله عَزَّ وَجَلّ: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [الزخرف:67] يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: خليلان مؤمنان وخليلان فاسقان! يقول: أما المؤمنان فمات أحدهما فأدخله الله الجنة، وفي الجنة رأى ما هو فيه من النعيم، وذكر صاحبه الذي كان يأمره بطاعة الله وينهاه عن معصية الله فخشي عليه أنه يضل بعده، فقال: اللهم! إنه كان لي خليل يأمرني بطاعتك وينهاني عن معصيتك حتى وردت هذا المورد ودخلت الجنة، اللهم! إني أسألك أن تثبته على دينك حتى تجمعني به في جنات النعيم، قال: فثبته الله وكتب له الجنة وهو في الدنيا، قال: والخليلان الفاسقان أحدهما مات فدخل النار، فلما وقع في الورطة تذكر من ورطه، فإذا به يخشى أن يسلم خليله ويهتدي ويذهب إلى الجنة وهو في النار، فقال: اللهم! إنه كان لي خليل يأمرني بمعصيتك وينهاني عن طاعتك حتى وردت هذا المورد، اللهم! لا تهده ولا تجعله يسلم حتى يرى ما رأيت ويدخل فيما فيه دخلت. الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [الزخرف:67] هذا مخاصمة بين أهل النار لا يوجد منهم شخص يحب الآخر، أما أهل الإيمان فهم عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [الصافات:44]* يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ [الصافات:45]* بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ [الصافات:46]* لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ [الصافات:47] يتساءلون ويتحادثون ويتنادمون وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ [الطور:25]* قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ [الطور:26]* فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ [الطور:27]* إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ [الطور:28] نسأل الله من فضله أن يجعلنا من أهل الجنة وآبائنا وأمهاتنا وإخواننا المسلمين. هؤلاء أهل النار كلهم: بعضهم يلعن

بعضاً، لا يوجد شخص يحب الآخر. المخاصمة بين التابعين والمتبوعين وتحصل مخاصمة ثانية بين التابعين والمتبوعين، بين العابد والمعبود، فيتبرأ كل من الآخر. قال تعالى: وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ [الشعراء:91]* وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ [الشعراء:92]* مِنْ دُونِ اللَّهِ [الشعراء:93] أين آلهتكم؟ أين أصنامكم؟ أين مبادئكم؟ أين أفكاركم؟ أين قدوتكم؟ أين شيوعيكم؟ أين حداثيوكم؟ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ [الشعراء:93] هل ينصرونكم وينقذونكم، أو يمتنعون من العذاب؟ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ [الشعراء:94] يعني: الذين عبدوهم، كلهم سواء وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ [الشعراء:95]* قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ [الشعراء:96] يتشاجر في النار التابع والمتبوع تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الشعراء:97]* إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [الشعراء:98] نجعلكم مثل الله نطيعكم، تحرمون ما أحل الله فنحرمه، وتحلون ما حرم الله فنحله، وتشرعون شريعة غير دين الله ثم نطبقها، وتضعون قوانين ما أنزل الله بها من سلطان ونحن نطيعكم عليها، سويناكم برب العالمين سبحانه تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الشعراء:97] أي: والله لقد كنا في ضلال مبين إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ [الشعراء:98] ثم يقولون: وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ [الشعراء:99] من هم المجرمون؟ هم دعاة الضلال الذي يضلون الناس ويزينون لهم الباطل، ويخدعونهم بدعوتهم إلى غير منهج الله، هؤلاء يقال لهم يوم القيامة بأنهم مجرمون، ثم يقولون: وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ [الشعراء:99]* فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ [الشعراء:100]* وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء:101]* فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء:102] لكن لا عودة أبداً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ [الشعراء:103]* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ [الشعراء:104]. تحدث مخاصمة أيضاً بين هؤلاء الأتباع والمتبوعين.. بين الظالمين ومن تبعوهم في الضلال. يقول الله عَزَّ وَجَلّ: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ [الصافات:22] يعني: نظراءهم وأشكالهم، وليس المقصود أن كل ظالم يحشر هو وزوجته، فقد

يكون الرجل ظالماً لكن زوجته مؤمنة، مثل فرعون فهو ظالم كافر في النار، وزوجته آسية بنت مزاحم مؤمنة في الجنة: قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ [التحريم:11]لم تقل: ابن لي بيتاً في الجنة وحسب، وإنما قالت: (عندك) سألت الجار قبل الدار! فهنا يقول الله: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ [الصافات:22] أي: الذين ظلموا والذين هم مثلهم، والذين كانوا يعبدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ أي: دلوهم، لكن إلى أين؟ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصافات:23] فقد دللناهم في الدنيا على صراطنا المستقيم فرفضوه وساروا في طريق الشيطان، فالآن دلوهم إلى نهاية الطريق فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصافات:23].ثم قال: وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ [الصافات:24]* مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ [الصافات:25] لماذا لا تستنكرون؟ لماذا لا يدافع بعضكم عن بعض؟ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات:26]* وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ [الصافات:27]* قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ [الصافات:28] يقولون: كنا كلما أتينا نريد طريق اليمين ردتمونا عنه قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ [الصافات:29] أي: أنتم في الأصل كنتم معنا، وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ [الصافات:30] لم نأخذكم بالغلظة أو بالقوة والبطش بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ [الصافات:30]* فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ [الصافات:31]* فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ [الصافات:32] يقولون: نحن هكذا كنا غاوين فأغويناكم معنا فلماذا أطعتمونا؟ قال الله: فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [الصافات:33]* إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ [الصافات:34]* إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ، [الصافات:35]، الخصام بين الضعفاء والمستكبرين يحدث أيضاً خصام آخر في النار بين الضعفاء والمستكبرين، يقول الله: وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً [إبراهيم:21] يقولون: نحن أتباعكم ولابد أن تحملوا من العذاب شيئاً أكثر منا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ [إبراهيم:21].وفي موضع آخر من القرآن يقول الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ [غافر:47] يعني: يتحاكمون ويتخاصمون، ويتشاجرون فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا [غافر:47-48] الله أكبر! لا إله إلا الله! يقولون: أين نذهب بكم؟ كيف ننصركم؟ ونحن معكم. فأهل النار يقول الكبير منهم للصغير: قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ [غافر:48]. وهذا كله في عرصات القيامة قبل أن يدخلوا النار، وعندما يدخلون النار ويقفون على الأبواب يتخاصمون أيضاً، يقول الله عَزَّ وَجَلّ: هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ [ص:55] شر مآب وشر مصير للطاغين المجرمين جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ * هَذَا فَوْجٌ [ص:56-59] يعني: مجموعة جاءوا إلى النار مُقْتَحِمٌ [ص:59] فلا يدخلون النار مشياً وإنما يدفعون دفعاً يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً [الطور:13] ثم سبعين سنة يهوون حتى يصلوا إلى قعرها هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ [ص:59] أي: مقتحم عليكم في النار. فيقول من في النار: لا مَرْحَباً بِهِمْ [ص:59] كان إذا رآه في الدنيا يرحب به ويأخذه بالأحضان؛ لأنهم اجتمعوا في الدنيا على صوت العود والأغاني، ويوم القيامة يقول: لا مَرْحَباً بِهِمْ إِنَّهُمْ صالوا النَّارِ [ص:59] فيقول الذين في الأعلى: قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَباً بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ * قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً ضِعْفاً فِي النَّارِ [ص:61-61]. ظهور الحقيقة للكافرين الساخرين من المؤمنين وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ [ص:62] وهم في النار تذكروا، قالوا: أين الذين كنا نتصورهم من الأشرار من هم؟ هم أهل الإيمان؛ لأن الكفار كانت فطرهم منكوسة، ونظراتهم مغيرة، كانوا يتصورون المؤمن شريراً ويقولون: هذه عقلية متخلفة وهذا هوس ديني. فتجده في الدنيا يلمز ويغمز، ويصب الاتهامات على المتدينين، فأحياناً يصفهم بالتزمت، وبالاحتقار، فنقول: وأنت أين أنت؟ يقول: هؤلاء أشرار. أين الذين كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ [ص:62]* أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيّاً [ص:63] يقول ضحكنا عليهم في الدنيا، أين

هم الآن؟ أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ [ص:63] لعلهم في النار، ونحن لا نراهم بأعيننا، أين هم؟ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ [ص:64].ثم يتضح لهم أن أولئك في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، بما صبروا وتحملوا من الأذى في سبيل إرضاء الله تعالى. ويقع خصام آخر بين الكافر وبين قرينه، القرين: الشيطان. يقول الله عَزَّ وَجَلّ: وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ [ق:23]* أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ [ق:24]* مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ [ق:25]* الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ [ق:26] فيقول الآخر: قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ [ق:27] فيتبرأ إبليس ويقول: ما أطغيته، ولكن كان في ضلال بعيد، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ [ق:28]* مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [ق:29]. خصام بين الكافر وأعضائه هذه مخاصمة بين الكافر وبين الناس، ثم بينه وبين زملائه، بينه وبين المستكبرين، ثم بينه وبين شيطانه، ثم تحصل مخاصمة بين الإنسان وبين نفسه، بينه وبين أعضائه، فعينك التي تستخدمها في الحرام والله لتكونن خصماً لها يوم القيامة، وتكون خصمك يوم القيامة. فيقول الله: وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [فصلت:19] يوزعون، أي: يجمعون، يجمع أولهم على آخرهم، مثلما تَجَمعُ الغنمَ إذا أدخلتها في الحضيرة، لا تُدخلها واحدة.. واحدة، وإنما تتجمع كلها، تخشى أن إحداها تهرب فتردها.. وهكذا، يحشرون ويوزعون حتى لا يفلت منهم أحد. حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [فصلت:20] ويبدأ الخصام: وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [فصلت:21] يقولون: إن الله الذي أنطقنا كما أنطقكم أول مرة، أنطقنا نحن الجوارح بما عملنا. أنت كانت عينك لك، وجعلتها عدوة لك وكانت أذنك لك، ولكن جعلت أذنك عدوة لك، كان بالإمكان أن تجعل هذه العين صديقة لك تنظر بها في الحلال، وتقرأ بها القرآن، وأذنك تسمع به القرآن ولسانك تتكلم به في الحق، فتكون هذه يوم القيامة شواهد

لك، ولكن يوم أن سخرتها في الباطل أصبحت شهيدة عليك. ويكون هذا حين يعاينون العذاب الشديد الذي أعده الله لهم، فيلجئون بعد ذلك إلى التقليد، والإنكار، وتكذيب الملائكة، ويدعون أنهم كانوا صالحين، فما يبقى عليهم حجة إلا أن يُشْهَدَ الله عليهم أنفسهم. فيختم الله على أفواههم، وتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وبعد سماعهم لكلام جوارحهم، يقول أحدهم لأعضائه: بعداً لكنَّ وسحقاً، عنكن كنت أجادل والله إن هذا الحديث تشيب منه الرؤوس إن كان في القلوب إيمان وحياة، أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يلقى العبد ربه فيقول له: ألم أكرمك ألم أسودك؟ ألم أزوجك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل؟ وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى أي رب. فيقول الله: أظننت أنك ملاقيَّ، قال: لا يا رب، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني، ثم يلق آخر فيقول له مثل ذلك، ثم يلق الله آخر، فيقول له مثل ذلك فيكذب على الله- فيقول: رب آمنت بك وبكتابك وبرسولك وصليت، وتصدقت، وصمت، ويثني بخير على نفسه ما استطاع فيقول الله: ألا نبعث شاهدنا عليك؟! فيفكر في نفسه، فيقول: من الذي يشهد عليَّ فيختم الله على فمه، ويقول لفخذه: أنطقي، فتنطق فخذه، وينطق فمه وعظمه وجلده بعمله الذي كان يعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق الذي يسبب سخط الله عليه). أخرجه مسلم . وفي صحيح مسلم حديث آخر، وفيه حوار آخر يجري بين العبد وبين جوارحه، وهذا الحوار يثير العجب والاستغراب، وقد أضحك هذا الموقف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ففي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: (كنا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضحك فقال: أتدرون مما أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول: يا رب ألم تجرني من الظلم، فيقول الله: بلى. فيقول: إني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، فيقول: اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً [الإسراء:14] ثم يختم على فيه فيقال لأكتافه: انطقي فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام -وبعد ما تأتي أعضاؤه بالشهادة يعطى فرصة للكلام- فيقول: لأعضائه بعداً لكُنَّ وسحقاً، عنكن

كنت أناضل، عنكن كنت أجادل!).هذه هي الخصومات ثم يدخلون بعد ذلك النار وترتفع أصواتهم باللعن، ويقول الله في هذا قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِنْ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ [الأعراف:38].فهذا هو حال الكفار يوم القيامة، فهل يريد أحد منا أن يكون في مثل هذه الحال ؟ نعوذ بالله من هذه الحال. اللهم إنا نعوذ بك من النار ومن حال أهل النار، ومن حر النار، ومن عذاب النار، ومن الخزي والبوار، ونسألك يا الله، يا أرحم الراحمين ! أن تجيرنا من النار، اللهم حرم أجسادنا على النار، ولحومنا على النار وأبشارنا على النار، وحرمنا يا مولانا على النار! وآباءنا وأمهاتنا، وإخواننا وأخواتنا، وجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين، وبهذه المشاهد يتضح لنا ما عليه أصحاب المعاصي والذنوب في الدنيا والآخرة وكيف تكون حياتهم ومآلهم ومنزلتهم عند ربهم وأنهم خسروا الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين فيجب أن نرجع الي ربنا ونتذكر أن الله سريع العقاب وأنه يأخذ بالذنب وأنه لا يتهاون فيمن تهاون في حقه ومن جعل ربه أهون الناظرين إليه فقبل أن نندم ولا ينفع الندم لابد من اللجوء إلى الله وحبه سبحانه والتلذذ بطاعته وبغض معصيته حتي نملك السعادة في الدارين الأولي والآخرة إنه سميع مجيب الدعوات والله أسأل أن يتقبل هذا الجهد المقل وأن يقيل عثراتنا ويتقبل أعمالنا إنه ولي ذلك ومولاه وصلي اللهم على سيدنا محمد وعلى آلة وصحبه أجمعين.

كتبه العبد الفقير : سيد أحمد أمين

راجعه : أ/عبد المنعم أحمد أمين

الأربعاء الموافق :2017/6/7

رقم أسبن :- ISBN #: 978-1-387-02929-7